الفصل الثالث
الموشحات الأندلسية والأزجال

obeikandl.com

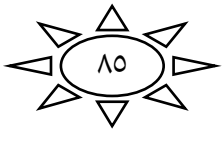

* الموشحات الأندلسية *

نشأ هذا الفن فى نهاية القرن الثالث الهجرى ، وبدأ يأخذ طريقه فى الحياة الشعرية الأندلسية ، كما كان له أثره الكبير بعد ذلك فى المشرق والمغرب على السواء .

ومن المعلوم أن الأندلسيين كأى شعب له أغنياته أو أغانيه التى لا تلتزم عادة بوزن أو قافية ، فكانت الموشحة فى صورتها تلك أكثر الألوان الفنية صلاحية وقبولاً فى الغناء ، خاصة وأنها قد استلهمت تلك الأغنيات المحلية هناك ، وأفادت منها فى منظوماتها ، إذ لم تتحرج من تدخل كلمات عامية أو ألفاظ سوقية، أو أمثال متداولة فأرضت أذواق الكثيرين ممن لا ينعمون بغناء الشعر الفصيح كما صادفت هوىً عظيماً فى نفوس الخلفاء والأمراء وذوى اليسار ، فكثر بغنائها أو التغنى بها العطاء للوشاحين والمغنين ، وكُتِب لها الذيوع والانتشار فى الأندلس أكثر من غيرها ، وبدت جديرة بنسبتها إليها ، حتى وإن كان لها بالفعل جذور وأصول شرقية كما تقول بعض كتب الأدب والتاريخ.

ويعتبر مقدم بن معافى القبرى أقدم من نظم فى هذا اللون الفنى فى أرجح أقوال الباحثين والمؤرخين ، كما ظهرت أسماءٌ كثيرةٌ لكبار الشعراء الوشاحين قُبيل نهاية القرن الرابع الهجرى وحتى نهاية القرن الثامن الهجرى أيضاً نذكر منهم : عبادة بن ماء السماء وعبادة القزّاز (**شاعر المعتصم بن صادح**) وابن الباقة ٥٠٧هـ والأعمى التطيلى٥٢٥هـ وابن باجة الفيلسوف ٥٣٣هـ وابن بقى ٥٤٠هـ وابن

سهل الأشبيلى ٦٤٩هـ ، ولسان الدين ابن الخطيب ٧٧٦هـ وفى النهاية أبو عبدالله بن زمرك وزير بنى الأحمر المتوفى ٧١٧هـ .

والموشحة في عمومها : منظومة غنائية يتغير فيها الوزن وتتعدد القوافى مع التزام التقابل فى الأجزاء المتماثلة ([1]) ، فهى من فنون الشعر العربى الذى يتخذ قوالب بعينها فى نطاق تعدد الأوزان .

ويشتمل كل موشح على سبعة أجزاء ، اصطلح عليها القائمون بفن التوشيح وهى : -

١. المطلع أو المذهب .

٢. الدور .

٣. السِّمط .

٤. القُفل أو المركز .

٥. البيت .

٦. الغصن .

٧. الخرجة .

وإليك نموذجاً لإحدى الموشحات ، نوضح عليه مكان كل جزء من هذه الأجزاء السبعة .

والموشحة المختارة لابن سهل الأشبيلى ٦٤٩ هـ يقول فيها :-

هل دَرَى ظبيُ الحِمَى أنْ حَمَى

قلب صَبٍّ حلّه عن مُكنِس

فهو فى حرٍ وخفقٍ مثلما

[1]) انظر : الأدب الأندلسى ـ لأحمد هيكل ـ ص١٤٣ .

obeikandi.com

لعبت ريح الصَّبا بالقبــس

يا بدوراً أطلعت يوم النــوى

عزرا تسلك فى نهج الغــرر

ما لعينى وحدها ذنب الهــوى

منكم الحسن ومن عينى النظـر

أجئتنى بالذات مكروه الجـوى

والتذاذى من حبيبى بالفكــر

وإذا أشكوه وجدى بسمــا

كالرُّبى والعارض المنبجــس

إذ يقيم القطر فيه مأتمــاً

وهى من بهجتها فى عــرس

من إذا أملى عليه حرمــتى

طارحتنى مقلتاه الدنفــا

تركت ألحاظه من رمــقى

أثر النمل على صم الصفــا

وأنا أشكوه فيما بقـــى

لست ألحاه على ما أتلفــا

وهو عندى عادل أنْ ظلمــا

ونصيحى نطقه كالحــرس

obeikandl.com

ليس لى فى الأمر حكم بعدمـا

حل من نفسى محل النفــس

غالب لى غالب بالتــؤدة

بأبى أفديه من جاف رقيــق

ما علمنا قبل ثغر نضــده

أقحواناً عصرت منه رحيـق [١]

أخذت عيناه منه العــربدة

وفؤادى سكر، ما إن يفيــق

فاحم اللّه معسول اللمــى

ساحر الغنج شهى العـس [٢]

وجهه يتلو " الضحى" مبتسـماً

وهو من إعراضه فى " عبـس "

أيها السائل عن جُـرمى عليه

لى جزاء الذنب وهو المذنـب

أخذت شمس الضحى من وجنتيه

مشرقاً للشمس فيه مغـرب

ذهبت دمعى أشــواقى إليه

وله خدٌ بلحظى مذهــب

---

[١]) الأقحوان : نوع من النبات زهره أصفر أو أبيض ، ورقه مؤلل كأسنان المنشار ، وكثر فى الأدب تشبيه الأسنان بالأبيض المؤلل منه .

[٢]) الفنج : الدل . اللعس : سواد مستحسن فى الشفة .

obeikandl.com

ينبت الورد بغرســى كلما

لحظته مقلتى فى الغلــس

ليت شعرى أى شىء حــرَّما

ذلك الورد على المفتــرس

أنفدت دمعى نار بى ضــرام

تلتظى بى كل حين ما تشـا

هى فى خديه برد وســلام

وهى ضر ورحيق فى الحشـا

أتقى منه على حكم الغــرام

أسداً وُرّداً وأهواه رشــا [١]

قلت لما أن تبدى معلمــاً

وهو من ألحاظه فى حــرس

أيها الآخذ قلبى مغنمــاً

اجعل الوصل مكان الخُمس [٢]

أما الأجزاء السبعة للموشحة المذكورة فهى على الترتيب كما يلى:-

١- المطلع أو المذهب :

[١]) الأسد الورد : الجرئ . الرشا : الظبى إذا قوى ومشى مع أمه .
[٢]) الخمس : خمس الغنيمة .

obeikandl.com

وهو اصطلاح يطلق على مطلع الموشحة ، ويتكون عادة من أربعة أشطر (**كما في الموشحة المذكورة**) أو من شطرين فقط ، **ويسمى كل شطر منها** : غصناً .

والمطلع فى موشحتنا هما البيتان الأوليان " هل درى ظبى الحمى- إلي آخرها .

٢- الـــــدور :

وهو مجموعة من الأبيات التى تلى المطلع ، وهى فى موشحتنا ثلاثة أبيات وهى الحد الأدنى للدور ، وهى المطلع العددى للدور وقد تزيد عن هذا بشرط أن تتكرر بنفس العدد فى بقية الموشح ، وأن تكون من وزن المطلع مع اختلاف قوافيها عن المطلع كما يشترط أن تتفق القوافى فى أشطر الدور الواحد ، **والدور في موشحتنا هو** :

يا بدوراً أطلعت يوم النــوى

عزرا تسلك فى نهج الغــرر

ما لعينى وحدها ذنب الهــوى

منكم الحسن ومن عينى النظـر

أجئتنى بالذات مكروه الجـوى

والتذانى من حبيبى بالفكــر

obeikandi.com

فالدور كما نرى ثلاثة أبيات وهى من نفس وزن المطلع ولكن مع اختلاف قوافيها عنه ، أما أشطر الدور اليمنى فهى متقفة القافية وكذلك الأشطر الثلاثة اليسرى متفقة القافية أيضاً كما نرى .

٣ـ السـمط :

وهو كل شطر من أشطر الدور الستة المذكورة : أما أشطر المطلع فيسمى كل منها غصناً (**كما سيأتى في تعريف الغصن**).

٤ـ القفـل :

وهو ما يلى الدور مباشرة ، ويشبه المطلع من جميع نواحيه (**في الوزن والقافية وعدد الأشطر أو الأغصان**) .

وتكون الموشحة كاملة إذا بلغت عدة أقفالها خمسة كموشحة ابن سهل التى معنا **والقفل الذى معنا هنا هو** :

وإذا أشكوه وجدى بسمـا

كالربى والعارض المنبجـس

إذ يقيم القطر فيه مأتمـاً

وهى من بهجتها فى عـرس

opeikanan.com

٥ـ البيـــت :

وهو مجموعة أبيات الدور والقفل معاً ، وعلى هذا فإن البيت فى الموشحة يختلف عن البيت فى القصيدة ، حيث لا يتجاوز فى الأخيرة شطرين أما فى الموشحة فكما نرى يتكون من عشرة اشطر (**هى للدور والقفل معاً**) .

٦ـ الغصـــن :

وهو كل شطر من أشطر المطلع أو القفل أو الخرجة وتتساوى الأغصان عدداً وترتيباً وقافيةً فى كل الموشحة ويجوز أن تتفق قافية الغصنين ، كما يجوز أن تختلف كما فى الموشحة المذكورة.

٧ـ الخرجـة :

وهى القفل الأخير فى الموشحة ، ولكنها سُميت بذلك لوقوعها فى نهاية الموشحة أو أنها تُؤذن بالخروج من الموشحة بعد قراءتها .

ويلاحظ أن الموشحة قد تخلو من المطلع ، وتبدأ بالدور ولكنها لا يمكن أن تُسمى موشحة إذا خلت من الأقفال والخرجة ، فهى عصب الموشحة وأهم أجزائها . كما قد تكون الخرجة معربة إذا كانت فصيحة اللفظ والتركيب كما فى موشحتنا المذكورة ، ولكنها تسمى خرجة زجلية إذا كانت عامية أو أعجمية الألفاظ ، والخرجة الأعجمية كثيرة ومُستحسَنة عند الأندلسيين ، ولسنا بحاجة لذكر نماذج لها .

هذا وما دام الموشح يمثل أحد الألوان الفنية فى شعرنا العربى ، فإن له نفس الموضوعات والأغراض التى يتناولها الشعراء فى مختلف قصائدهم ومنظوماتهم ومن أمثلة ذلك ما ذكرناه لابن سهل الأشبيلى فى موشحتنا الغزلية

obeikandl.com

السابقة ، وما يمكن أن نضيفه أيضاً إلي ما للموشحات من أغراض مثل موشحة أبى جعفر بن سعيد **في وصف الطبيعة التى يقول فيها**:

ذهبت شمس الأصيل فضة النهر

أى نهـر لمدامــه

صير الظل فدامـــه

نسجته الريح لامـــه

وثنت للغصن لامـــه

فهو كالعضب الصقيل حف بالشفـــر

****

مضحكاً ثغر الكمـــام

منكباً جفن الغمـــام

منطقاً وُرق الحمـــام

داعياً إلي المـــرام

فلهذا بالقبـول حط بالمـطر

****

حبذا بالحـور معـنى

هى لفظ وهو معـــنى

مذهب الأشجان عنـــا

كم درينا كيف سرنـــا

ثم فى وقت الأصيـل لم نكن نـدرى

obeikandi.com

****

قلت والمزج استـــدارا

بذرى الكأس ســـوارا

سالباً منا الوقـــارا

دائراً من حـــيث دارا

صار أطيار العقول شبك الخمـر

****

وعد الحب فأخلـــف

واشتهى المطل فســـوف

ورسولى قد تعـــرف

منه بما درى فحـــرف

بالله قل يارسـولى لشى يغب بـدرى

****

فالشاعر كما نرى يجمع إلي الوصف فى موشحته وصف النهر، ثم يمنحه ضروباً وأفانين من الألوان الزاهية المبهجة للنفس، فشمس الأصيل تنعكس على مائه الفضى فتُبديه كالخمر، ثم يُبديه فى صورة السيف المصقول، يضحك أكمام الزهور، ويبكى الغمام وينطلق ورق الحمام يصف الحور وفتنة الروض التى توحى

obeikandl.com

بالشراب ، ثم يدفعه ذلك إلي الغزل فى الساقى ، وهذه الموشحة تشتمل على الأجزاء السبعة كسابقتها ولكن خرجتها عامية .

سادساً : الزجـــل : نشأته وتطوره :

ولعل الحديث عن فن الزجل بعد الحديث عن الموشحات يبدو أمراً منطقياً وطبيعياً ؛ لأن فن الموشحات قد اشتمل على بعض العبارات العامية أو الأعجمية فى الخرجات التى تُختم بها الموشحات ، وأحياناً فى كيانها وبنائها وهى بذلك تشكل الحلقة الوسطى بين الشعر الفصيح والشعر العامى الذى اصطلح النقاد والأدباء على تسميته بالزجل .

المفهوم والنشأة :

والأزجال جمع زجل ، وهو فى اللغة التنغيم والتطريب من زجل الحمام إذا غنى وطرب ، وقد أطلق الأندلسيون هذا الاسم على الشعر العامى المقابل للموشحات ، وفى هذه التسمية ما يدل على أنه كان يتغنى بهذه الأشعار العامية فى الطرقات والأسواق والمحافل العامة .

أما عن النشأة فقد ذهب بعض الباحثين – نظراً- للتشابه الموجود بين الزجل والموشحة من حيث الأقفال والأغصان ، وبعض الأجزاء الفنية الأخرى إلي أنهما قد ظهرا فى وقت واحد ونشأ معاً فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ولكن منطق الأمور لا يؤيد هذا الرأى ؛ لأن النصوص الزجلية التى وصلت إلينا قد كُتبت بعد أن أصبحت الموشحات فناً قائماً بذاته ، واحتلت مكانتها وثبّتت أقدامها .

obeikandi.com

ولذلك فإن القرائن والمؤشرات تذهب إلي أن الزجل قد ظهر متأخراً بعض الوقت عن التوشيح ؛ لأنه يشكل المرحلة الثالثة لتحول الشعر العربى فى الأندلس حيث قد سبقته مرحلة الشعر الفصيح ، ثم مرحلة شعر الموشحات .

ولعل ظهور فن الزجل واستوائه كان أمراً طبيعياً حتى يناسب ذوق وفهم العامة من أبناء الشعب والأعاجم خاصة عندما استولى البربر على الأندلس فى عهد ابن تاشقين كان لابد للشعر أن ينتكس بصورة أو بأخرى حتى يسهل فهمه على هذا الفريق من العوام .

موضوعـــــاته :

أما عن موضوعات الزجل ، فقد كان فى أول نشأته مقصوراً على الغزل واللهو والمجون ، ثم أصبحت قصائده - إنْ صحت أن نسميها قصائد - تعالج الوصف والفخر والهجاء والزهد والرثاء والمديح وسائر الفنون الأخرى .

بناؤه الفنـــى :

أما من حيث البناء الفنى للزجل فإنه يخضع لبعض القيود الفنية التى تخضع لها الموشحة ولكن قيوده وتكوينه أخف قليلاً من تلك القيود التى تخضع لها الموشحة .

فالزجل يستفتح كالموشحة بالمذهب أو المطلع ، ثم بعد ذلك الدور ، وكل دور ينتهى بقفل ، وينتهى الزجل أيضاً بخرجة من بحر وقافية المطلع والأزجال .

ومن هذا المنطلق ظهر زجالون كثيرون فى الأندلس ، وإن لم يصل عددهم إلي نصف عدد الوشاحين وكان على رأسهم أبو بكر ابن محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الأصفر ، الذى بدأ شاعراً ، فلما أحسّ أنه لن يصل إلي مرتبة الشعراء

الكبار، وأنس في نفسه القدرة على الإبداع فى الشعر العامى ، اتجه إلي الزجل وأجاد فيه واحتل فيه المرتبة الأولى وتبوأ مقاماً فى الزجل يشبه مقام المتنبى فى ميدان الشعر الفصيح .

ومن ألوان الزجل الرقيقة عند ابن قزمان قوله في كبش العيد :

- حبيبى كبش العيد أنا حريفك
- لس تصطحى تنفر ؟ ارحم ضعيفك
- إش حال جبينك إش حال صديقك
- إش حال شواياتك إش حال قديدك
- من يرانى ثالث العيد وأنا نقطع ونشوى
- وترى كبش معلق والقطيطس تحت يعوى
- وأنا عريان فى السراول أو فى منديل خبز ملوى

وإذا كانت بيئة الأندلس وطبيعتها قد فتنت الشعراء والوشاحين ، فلا شك أنها قد فتنت الزجالين أيضاً ، ولم يختلف الزجل هناك عن المشاركة فى هذا الميدان ، وفى هذا **يقول ابن أبى نصير في وصف الطبيعة :**

لا شراب إلاّ فى بستان	∴	والربيع قد فاح نوار
يبكى الغمام ويضحك	∴	أقحوان مع بهار
والمياه مثل الثعابين	∴	فى ذلك السواقى داروا

ومن أرق قصائد الزجل التى عالجت وصف الطبيعة مقطوعة زجلية للزجال أحمد بن الحاج من غليس **حيث يقول في روضة رقيقة :** -

ثلاث أشيا فالبساتين	∴	لس تجد فى كل موضع

obeikandl.com

النســـيم والخضـــر والطـــير	∴	شـــم واتنـــزه واسمـــع

ومن أرق الألوان الزجلية هذا الزجل الغزل لابن عمير، والذى يطلب فيه من محبوبه أن يلين ويتعطف عليه بالوصال، وكفى ما وقع من هجر وقطيعة فقد زرف دموع عينيه واللهيب **قد اشتعل بقلبه فيقول** : -

يـــا حبيـــب قلبـــى تعطـــف	∴	بعـــد هـــذا الهجـــر يكفـــا
فـــدموع عينـــى مـــا ترقـــا	∴	ولهيـــب قلبـــى مـــا يطفـــا

ومن الخمريات الخالصة ما أنشأه أبو بكر بن صارم الإشبيلى الذى كان يتردد على الديارات ومجالس الشراب، ويغرق نفسه فى دنان الخمر **حيث يقول** :-

حقاً نحب العقار ***** فالدير طول النهار*** نرتهن

خلع لس قد عين فـلان

نشرب بشقف القدح كف ما كان

للدير فروترانى عيـان

ومن أزجال المديح قول ابن قزمان يمدح القاضى أحمد ابن الحاج مُلبِساً إياه ما يناسبه من صفات : -

أى نهار نراك فى دارك وات قد جلست للنـاس

والخصام يعطى ويمنع والزحام وفر الأنفـاس

وانت تحكم فى المناكح والغصب والدين والأحباس

وعلى كل لم نستطع أن نقف أمام ظاهرة الزجل وقفة المأخوذ المعجب الذى يطيل النظر إليه ، ويمعن التفكير فيه شأن وقفتنا أمام الموشحات لأن الزجل يُعد نظرة تخلف وتراجع إلي الوراء ، وانتقاص من الفن وقدره على خلاف الموشحات بما فيها من براعة وجدة ورقة وأناقة وموسيقى .

obeikandl.com